بين اللغة والناس

أ. د. مازن المبارك(*)

إنَّ بين المتكلم وكلامِه صلةً لا تخفى؛ فقد تدل لغته على عقله وفكره، وقد تدل على نزعاته النفسية أو العاطفية، وقد تدل على ثقافته...

وكثيرًا ما قالوا: تكلم حتى أراك، وقالوا: الأسلوب هو الرجل، وقالوا غير ذلك ليعبِّروا عن كون اللغة مرآة لصاحبها، وكون الصفحة التي تكتبها، أو القصيدة التي تنظمها تنطق عنك. وقد شاع هذا واشتهر حتى عرفنا في تراثنا النقدي نقّادًا يعرفون صاحب القصيدة من أسلوبها، ينسبون البيت إلى قائله حين يسمعونه، أو يردّون نسبته مستدلين بلغة البيت وأسلوب نظمه، وكأن الواحد منهم جوهري أو صيرفي يعرف الصحيح من العليل، والأصيل من المزوَّر!!

وكان هذا يوم كان العرب عربًا، وكانت اللغة سليقة وعلمًا، وأتى على هذه اللغة حينٌ من الدهر كانت للعلماء فيها أقوال وأحكام، يطلقونها على اللغة، أو على كلمة منها...

عرفنا ذلك في كتب اللغة والنقد وكتب الخلاف النحوي، وفي المعجمات، وكان أكثر ذلك منسوبًا إلى قائليه، مصحوبًا بحججه وأدلّته، ويندر عندهم أن نجد استشهادًا بالعلم منسوبًا إلى غير أهله، وإذا برز من

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عُرف بعلم من العلوم في غير علمه أصبح عَلَمًا نبَّهوا على مكانته ووثقوه واحتجوا به، كما كان الأمر مع الإمام الشافعي، فلقد اشتهر الرجل بالإمامة في الفقه وأصوله، وغلب ذلك عليه حتى أصبح صاحب مذهب ملأ الدنيا أتباعه، ولكنه كان إلى ذلك حجَّة عند اللغويين ينقلون عنه ويحتجون به، وكان من أئمة اللغويين وأعلام الرواة من يفتخر بأنه تخرَّج بالشافعي.

وكذلك كان الإمام النووي صاحبُ كتاب «تهذيب الأسماء واللغات» ممّن عُرفوا بثقافة لغوية متميزة. وعرفنا في هذا العصر مَنْ أتقَنَ العربية وعلومها ودرّسها من الشيوخ الأعلام في الشريعة وعلومها، عرفنا ذلك في الشام ومصر وتونس والمغرب وفي موريتانيا وغيرها.

ولكن عرفنا أيضًا من يطلق أحكامًا هي أقرب إلى الآراء الشخصية والنظرات الخاصة بأصحابها، وليست أحكامًا عامة، بل عرفنا في هذا العصر عجبًا من العجب؛ عرفنا علماء فرضتهم قرارات تعيينهم علماء! راحوا يشرّقون في اللغة ويغرّبون، ويفتحون على العربية أبواب التهجين والتشويه؛ فيجعلون الأوزان الصرفية والأبنية اللغوية أنغامًا وألحانًا!!، ويستبدلون بالأبنية وضوابطها الإيقاعَ الموسيقي، وبذلك يدخلون الأعجمي في العربية بحجة الموسيقا الواحدة! وهم كالذي يلوي لغته ويُنغمُها لنحسبها من القرآن، وما هي منه، ورأينا من يدخل على نسيج العربية ما لا يقبله ذوقها ولا يطيقه إحساسها، كالذي يجيز أن نقول: (أمين عام الجامعة) بدل (أمين الجامعة العام) أو (الأمين العام للجامعة)، وهو مع كونه قبيحًا خطأ في معناه؛ لأن (أمين عام الجامعة) ليس معناه الأمين العام للجامعة، ولأن معنى (حارس أعلى البناء) ليس معناه (الحارس الأعلى للبناء). ومن كان يعرف العربية، ويملك الإحساس اللغوي والذوق السليم لا يمكن أن يقبل مثل هذا التركيب! وأقسم

أنه أقبح على اللسان من الرقعة القبيحة في ثوب العروس. والأعجب أن الذين أجازوا هذا التعبير لا يفرّقون بين الخطأ في التركيب والخطأ في الكلمة المفردة، ويدافعون عن سلامة قولهم ذلك بمحاولة إيجاد وجهٍ إعرابيٍّ لكلمة (عام)... إن احتمال اللحن في جرِّ المرفوع أو رفع المجرور أهون على اللغة من هلهلة نسيجها أو تفكيك قوالبها، وتحليل جوهرها، وتقبيح صورتها ورونقها!! إن اللغة بنظمها وإحكام نسجها، ثم تأتي بعد ذلك مرتبة الكلمات المفردة بمعانيها ودلالاتها وأبنيتها ومواضع إعرابها.

وكان من عجائب ما سمعناه في هذا العصر أن رجلًا فاضلًا أفتى بحرمة استعمال كلمة (المثوى) لغير جهنم!، وأن الذي يقول عمّن مات: إنه دفن في مثواه الأخير، يكاد يكون كافرًا!؛ بحجة أن القرآن الكريم جعل جهنم مثوى الكافرين والمتكبرين.

ولو عاد هذا الأخ الكريم إلى كلام العرب يوم أنزل القرآن، وقبل ذلك وبعده، لرأى المثوى يتردّد في كلامهم شعرًا ونثرًا، ولو عاد إلى المعجمات وكتب اللغة لرأى المثوى في الإقامة، وطول الإقامة أينما كانت، بل لرأى ذلك في القرآن نفسه.

فلقد قالوا: إن المثوى هو المنزل، وأثواني الرجلُ ثواءً حسنًا. وقال سيدنا عمر: أصلحوا مثاويكم، وأخيفوا الهوامَّ قبل أن تخيفكم.

وقالوا عن ربِّ المنزل: هو أبو المَثْوى، وعن صاحبة المنزل: هي أمُّ المَثوى. وقال الشاعر الكُمَيت:

وما ضرَّها أن كعبًا ثوى وفوَّزَ مِنْ بَعدِه جَرْوَلُ

وقالوا: ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواء. قالوها نثرًا وشعرًا.

وقال ابن برّي: ثوى؛ أي: أقام بقبره، مفسِّرًا بذلك قولَ الشاعر الهذلي:

(نغدو فنترك في المَزاحف مَن ثوى)

ثم إن القرآن نفسه حكى عن الذي اشترى سيدنا يوسف حين استُخرج من الجبّ أنه قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: أكرميه وأحسني إقامته، وعقَّب سبحانه على ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]. وإذا كان سبحانه جعل ثواءه عند مشتريه من أنواع التمكين الذي مكَّنه ليوسف عليه السلام في الأرض! فكيف يكون قول الناس: (ثوى في قبره) خطأ، بله أن يكون كفرًا؟!!

وقد سمعنا في هذا العصر أيضًا من يرفض أو ينتقد كلمة أو جملة؛ لأن معلمه أو شيخه غير راض عنها! وقد نقبل ذلك على أنه رأي شخصيّ لصاحبه، أو اجتهاد منه، ولكنه ليس حكمًا يفرضه على غيره! وقد يكون ذلك لصلة خاصة بين الكلمة وقائلها أو كارهها، لمناسبة خاصة تركت أثرها في نفسه، كما أن ذلك قد يكون لنقص في ثقافته اللغوية.

وقد ذكّرتني هذه المواقف العاطفية التي أنطقت هؤلاء المحبين الأوفياء الذين غلب وفاؤهم لشيوخهم على وفائهم للعلم نفسه! بموقف الزَّجّاج[١] الذي كان ملازمًا لحلقة شيخه ثَعلبٍ إمام الكوفة، وكان خَتَنُه[٢] على ابنته، ثم ترك حلقته والتحق بحلقة منافسه المبرّد شيخ البصرة، ولما عوتب في ذلك، وقيل له: تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه، وتدع من قد شُهِرَ علمه وانتشر في الآفاق ذِكرُه؟ قال: لست أقول بالذِّكر والخمول، ولكني أقول بالعلم والنظر.

(١) انظر القصة مفصلة في كتاب «الرماني النحوي» لمازن المبارك ص٣٠ ط جامعة دمشق سنة ١٩٦٣، و«طبقات الزبيدي» ص١١٨.

(٢) خَتَنُ الرجلِ: زوج ابنته.

ولننظر إلى هذا الفرق بين علماء الأمس، فالزجاج مات سنة ٣١١هـ، وبين علماء اليوم - إذا كانوا علماء - كيف تقودهم عواطفهم بعد أن نامت عقولهم... مع أن أمامهم وإمامَهم نور يناديهم: (الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها التقطها).

وكذلك الحقيقة ضالّة الباحث أنّى وجدها قال بها، ولكن الحكمة اليوم عزيزة ونادرة، ومن أوتيها فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ولكنه جلَّت حكمته ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأقول إتمامًا للفائدة: الناس أمزجة مختلفة في التعبير عن أفكارهم، وفي اختيار الكلمات التي يؤثرونها، وهم يختلفون نفوسًا وعواطف، ويختلفون ثقافة وسعة في الثروة اللغوية.

وكثيرًا ما ربطنا بين المتكلم وبين لازمة من كلامه يرددها، أو بينه وبين كلمة يُكثر النطق بها، وكثيرًا ما جعلنا بعض الكلمات أو الجمل رمزًا ندل به على أصحابه ومستخدميه، وكثيرًا ما كنَّينا عن بعض معلّمينا بتعبيرات يرددونها. ولست أكتم أنني أنا لا أعبر بكلمة (والدي) أو (والدتي) إلا في السجلات الرسمية، وأشعر أنه ما من كلمة في الدنيا تعدل كلمة (أمي) أو (أبي)، وأن الواحدة منهما تخرج من قلبي لا من فمي، وأنها تعود بي إلى أحضان حياة لا تسعني غيرها، ولا تبعث فيّ الشعور بحنان الأم ورخاء الأمومة، وبقوامة الأب وصلة الأبوّة غيرهما... وهيهات هيهات أن تكون والدتي مرادفة لأمي، أو أن يكون والدي مرادفًا لأبي، هكذا أشعر، رضي من رضي، وسخط من سخط، وعجب من عجب... وأظن أن من كان عنده إحساس بلغته يعرف ويدرك معنى ما أقول، وأن في لغته الخاصة كلماتٍ يشعر بها أكثر مما يشعر به إزاء مرادفاتها!

وإذا تركت اللغة الخاصة، والأمثلة الخاصة والفردية، وانطلقت إلى ما هو

أعرف وأشيع، وسألت: هل يثير قولي: كان فلان من أصدقاء النبي ﷺ في نفس المسلم الواعي ما يثيره قولي: كان فلان من صحابة رسول الله ﷺ؟

هل يثير في نفس المسلم الواعي قولي: كان فلان مناضلًا أو مكافحًا ما يثيره ويبعثه في نفسه قولي: كان فلان مجاهدًا؟! وهل تبعث كلمة (النضال) أو (الكفاح) في النفس ما تبعثه وتثيره كلمة (الجهاد) ذات التاريخ العريق، وذات الشذا الإسلامي وذات الإشعاعات الروحية التي لا تنتهي حتى ينتشي قائلها وقارئها بآيات العزة والتضحية والفخار.

وهل عرفت بعد ذلك لماذا يستبدل أعداؤنا بكثير من الكلمات المشعّة في تاريخنا كلماتٍ جافةً، ولو نفخوا فيها ما نفخوا، ولو طبَّل بها الإعلام وزمَّر؟!

وأما قولنا: إن فلانًا لم يكن يرضى أن يقول كذا، فهو أمر له وجوه ينبغي أن يفصَّل القول فيها؛ فقد يكون رضاه كرضاي في قول (أمي) بدل (والدتي)، وهذا أمر يكون الرضى فيه أو عدمه لصاحبه، لا يناقَش فيه ولا يُرَدُّ عليه، وليس له أن يفرضه على غيره.

وقد يكون عدم الرضى لأمر لغويّ أو شرعيّ، وحينئذ ينبغي أن يكون معه دليله.

وأمثِّل لذلك بقول من قال: إن فلانًا لم يرض أن يقال للميت: (فقيد) وإنه آثر كلمة (الراحل).

لقد سمعت هذا من غير واحد من الناس، فلم ألتفت إليه ولم أبال به، ثم سمعته من صديق من أهل العلم والتقوى، فسألته عن سبب كرهه لكلمة (فقيد) التي نطلقها على من فقدناه من الأهل والأحباب، فقال: هذا كلام يقوله المادّيون الذين يظنّون أن الموت فقدٌ وإعدام، أما نحن المسلمين فنعتقد أن من يموت يذهب إلى حياة ثانية، وهي حياة الآخرة، ولَلآخرة خير

وأبقى من حياة الدنيا التي كان فيها، لذلك نفضل أن نقول عمن مات: إنه ارتحل، أو رحل، ولا نقول: إنه فقيد!

وأذكر أنني شرحت لذلك الصديق حقيقةً ذكرها الإمام اللغوي أبو الفتح عثمان بن جني رحمه الله وأحسن إليه، وهي أن كثيرين ممن ضلّ من أهل الشريعة إنما دفعه إلى الضلال في الرأي ضعفُه في فهم حقائق هذه اللغة الشريفة! وقلت له: وأحمد الله أن عدم قبولكم كلمة (الفقيد) لا يُسمّى ضلالًا، بل هو عن وهم توهّمه بعض السابقين ووصل إليكم، فنقلتموه أو قبلتموه من دون تحقيق ولا تمحيص، إن ما نُقل إليكم من أن (الفقد) معناه (العدم) ليس صحيحًا أو ليس دقيقًا؛ فقد فسر بعض الكُتَّاب الفقدَ بالعدم؛ لأنهما كليهما يدلّان على عدم الوجود، وهذا قول من لا يفرّق بين ما نُسمِّيه بالمترادفات، ومن يتسمَّح في إهمال الفروق الدقيقة بين معاني الكلمات التي يحتويها معنى عام واحد، وهذا منهج يأخذ به العامة من الناس والضَعَفة من الكُتَّاب، وأما اللغويون وأصحاب الحس اللغوي فالفروق الدقيقة بين المترادفات يعدونها خاصّة من أدقِّ خصائص اللغة العربية التي قلَّ أن تشابهها بهذه الخاصة لغةٌ أخرى؛ فنظر وأبصر ورنا وحدق وحدج و... كلها عند العامة سواء، ولكلٍّ منها عند اللغوي معنى! وكذلك أعطى ومنح. ولو عدت إلى الذين يُعنَون بالفروق لرأيت العجب في تسمية مراحل كلّ من النوم والحبّ، وأزمنة الليل وساعات النهار، وغير ذلك ممّا لا يُحصى كثرةً باسمٍ خاصٍ ينفرد به ويدلُّ عليه.

وأمَّا اليوم فكيف يجوز لنا، وقد قلّ العلم، وذهبت السليقة مع أهلها، وأصبح أحدنا يَشكُّ في لغته وصحّة أسلوبه لكثرة ما يسمع من المَلحُونِ، وما يقرأ من الضّعيف والمهلهل، والمعدول به عن أصله، ومن الدخيل والهجين والعامّي، كيف يجوز أن ننقل اللغة عن غير مُختصّ، أو عن

محدَث من أبناء هذه البيئة؟!

ولقد لجأت في كثير من السنوات الجامعية التي خلت، وكنت أصحّح في آخر كل سنة تدريسية ما يزيد على الألف ورقة، وأحيانًا على الألفين = إلى الاعتكاف في إحدى القرى مع كتاب للجاحظ أو التوحيدي أو الرافعي؛ لأستعيد ما ضاعَ من لساني، وأنا أُصحِّح أوراق الطُّلاب وأعايش اللحن والركَّة شهرًا أو يزيد.

وأصبحت لا أقبل من محدَث حكمًا لغويًّا إلّا إذا كان معزوًّا إلى مصدره، أو كان معه دليله.

وكان مما لفت نظري في العصر الحديث، وهو أمر لم أكن أفكِّر فيه حين كنت أنقل عن القدماء = أن بعض المحدَثين ممّن كانوا طلابًا ودارسين، ثم أصبحوا كتّابًا وباحثين، يردّدون ما سمعوه من بعض معلّميهم أو شيوخهم، ويؤثرونه، حبًّا بمن سمعوه منهم!!، أو ثقةً بمن سمعوه منه، بل رأيت بعض الكتَّاب ينقل عن معلِّمين وشعراء محدَثين أحبَّهم وحفظ الكثير من مشهور أقوالهم وأشعارهم، لا لصحّتها ولا لجمالها، ولكن لحبّه لقائليها وإيثاره لهم على غيرهم!!

ولولا أني لا أكتب اليوم لنقد أحد أو التشهير بأحد، لذكرت عددًا من أمثلة الأحكام العجيبة التي أطلقها هؤلاء المولَّهون بمعلّميهم وشيوخهم، وما هي بشيء إلا شيء لا قيمة له. وقد ظهر على كثير مما قالوه من الأحكام أثر الحبّ والإعجاب النفسيّ بمن ينقلون عنهم!

ونترك الأمثلة لنعود إلى الوهم في معنى العدم والفقد، والظن أنهما سواء!! فالذين قالوا: إن المفقود معدوم ذهبوا إلى أن كلًّا منهما غير موجود؛ ومن هنا رفضتم كلمة (الفقيد)؛ لأنكم أخذتم بقول من يميت الفروق بين

المترادفات ويتسامح في ذلك، وليست اللغة كذلك.

فالمفقود هو الذي كان موجودًا ثم تفقدناه، فلم نجده؛ لأنه فُقِدَ، وأما العدم، ومنه المعدوم، فهو لم يوجد أصلًا، لأن العدم هو عدم الوجود، ولا أحد يوجِد من العدم إلا الله جل جلاله.

ونحن حين نفتقد الشيء فإنما نفتقده بعد ضياعه، ولا يضيع عنا إلا إذا كان من قبل موجودًا عندنا، فإذا فقدناه فليس معدومًا، ولكنه مفقود؛ لأن المعدوم لم يوجد أصلًا، وأما المفقود فقد كان موجودًا، وهو بعد فقده من عندنا موجود في مكان ما.

يؤيد هذا مئات الأمثلة التي وصلت إلينا عن الذين عرفوا لغتنا حق معرفتها، والذين عرفوا شرع الله حق معرفته، فلقد مرّ في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أن السيدة عائشة تفقدت رسول الله ﷺ في ليلة، فلم تجده في فراشه.

وقد قال النبي ﷺ يرثي عمه أبا طالب: «يا عمِّ: ما أسرع ما وجدت فقدك!».

والتفقد هو أن تبحث عن الشيء، فإذا لم تجده فهو مفقود. ومنه في كتاب الله عن سليمان عليه السلام أنه تفقد الهدهد فلم يجده، فهو مفقود. ومنه في مدارسنا الابتدائية جداولُ التفقُّد التي تقرأ كل صباح لمعرفة الحاضر من الغائب.

ولو عدنا لأشعار الشعراء من الصحابة لرأينا الكثيرين منهم يعبرون في مراثيهم عن الفقد وألمه وعمن افتقدوه. ولقد قالوا لكثرة هذا الذي ذكرناه:

لا بدّ من فقدٍ ومن فاقد هيهات! ما في الناس من خالد

وقالوا في رثاء رسول الله ﷺ:

فقدتْ أرضنا هناك نبيًّا كان يغدو به النبات زكيًّا

خُلُقًــا عاليًــا ودينًــا كريمًــا وصــراطًا يهـدي الأنـام سـويًّا

وقال أبو سفيان في رثائه ﷺ في قصيدة مطلعها(٣):

أرقــتُ فبــات ليلــي لا يــزول وليلُ أخي المصيبة فيه طُولُ

فقــدنا الــوحي والتنزيــل فيــه يــروح بــه ويغــدو جبرئيــل

وقالوا:

فالنــاس كلّهــم لفقــدك واحــد فــي كــلِّ بيــت رنَّــة وزفيــر

وقالوا:

من لم يمت كمـدًا لفَقـد حبيبـه فهـو الخـؤون مـودة وعهـودا

ومن رثاء للإمام السبكي قوله:

مصــابٌ لــيس يشـبهه مصــاب لذي الألبـاب إذ فُقـد الشـهاب

ومن المشهور عند العرب قولهم: مات فلان غيرَ فقيد ولا حميـد! وزاد صاحب «أساس البلاغة»: مات فلان غير مفقود ولا محمود.

أفليس من حقنا بعد ذلك كله أن نقول عن الميت: إنه فقيد؟

أليس الذي أصابه الفقدُ من بيننا، وأننا أصابنا فَقدُه؟!

ثم إننا لا نقول: (فقيد) إلا لمن نشعر بفقده، وليس معنى فقده سوى أننا لم نجده بيننا.

وإذا كنا نشعر بأن من مات ما زال معنا بآثـاره وعلمـه وذكرياتـه، فتلـك كلها حياة قلبية ذكرية، وليست متعارضة ولا منافية لغيابه عنّا غياب الشـهيد، وهو من أكرم الأموات على الله، وقد وصفه جلَّ جلالُه بأنه حيٌّ عنده، ولكن ﴿لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]!

(٣) البيان والتبيين ١/ ٩٣.

أفلا نفتقد من لا نشعر بوجوده؟

وأما كلمة (رحل) فلها في النفس عند الكثيرين منا منزلة أدنى من منزلة (الفقيد)؛ لأن الغالب في الاستعمال أن من رحل قد يعود كمن هاجر، وأما الفقيد فلا عودة له!

ألسنا نستعمل اليوم كلمة (الرحلة) لمن يهاجر من بلده، ولمن يسيح مع الرحلات الطلابية، ومع مكاتب السياحة؟

ألم يصبح للرحلة والرحّالة حيِّز كبير في تراثنا الأدبي، يحتلّ مقامًا كبيرًا فيه أمثال ابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان؟

أفلا يجدر بنا أن نفرِّق بين من يرحل عن طريق مكاتب السياحة ومن يرحل عن طريق مكتب دفن الموتى!؟

رحم الله من (رحلوا) ومن (فقدناهم) ورحمنا معهم.

إن الذي يمارس اللغة، إن لم يكن عن دراسة فعن ألفة وإحساس، لا تقبل نفسه ولا ترضى أن تستعمل مرادفة بدل أخرى، ولو اجتمعتا في معنًى عام واحد!

إنه إذا أراد التعبير عن معنى الامتلاء مثلًا أعطى لكل موصوف ما يلائمه، فقال: إن النهر طافح، وإن البحر طامٍ، وإن الوادي زاخر، وإن الفُلك مشحون، وإن الكأس دهاق، وإن المجلس غاصّ، وإن الطريق مزدحم، وقد نطق بذلك القرآن فجاء فيه (الفلك المشحون)، وجاء فيه (الكأس الدهاق)، وأنت ترى اليوم عند كثير من الكتَّاب كلمة (ممتلئ) أو (ملآن) يعبرون بها عن كل ما سبق؛ لأنهم على قاعدة العامة (كله عند العرب صابون!!).

وإن بين محبِّي العربية ومتذوقيها وبين بعض كتابها وأدعيائها مثلَ ما بين العامة من الناس وبين الصرافين من الفرق في معرفة المزيّف والمزوّر من النقد والسليم منه!

فالعامة يتساوى عندها الأمران، وكلُّه عندها مقبول متداول، وأهل الصنعة يميزون الطيب من الخبيث، والسليم من العليل، والمصيب من المخطئ، والمستقيم من المعوج، كما يفرقون بين نظر وحدج، وبين أعطى ومنح، وبين باع وأباع، وبين غفر وعفا، وبين الفقد والعدم، وبين دلالات دقيقة لما نسميه المترادفات، ولا يتهمون العرب بأنهم وضعوا للشيء الواحد عشرات الأسماء، على حين أن هذه الكثرة من الأسماء للمُسمّى الواحد إما أنها جاءت عن قبائلَ متعددة تعدُّدَ تلك الأسماء، وإما أن أكثرها صفات جُعلت للشيء مثل اسمه، وهم إنما يستعملون في كل مناسبة الاسم الدالَّ على الصفة في تلك المناسبة، فالسيف حسام حين يحسم بين أمرين، وفيصل حين يفصل بين خصمين، وبتار حين يبترُ عضوًا أو عنقًا، وصقيل حين ينظرون إلى مظهره وملمسه... وهكذا.

وعدم إدراك ذلك هو الذي جعل مَنْ جهل العربيةَ يضلّ في الفهم، فيفرق بين الكتاب والقرآن، ويظن أن أحدهما غير الآخر!!، على حين أنهما صفتان تعبِّر كلٌّ منهما عن مسمًّى في حالة من حالاته، فهو كتاب حين يكون مكتوبًا في صحف، وهو قرآن حين يكون مقروءًا، والمكتوب والمقروء نفسه.

ورحم الله الجاحظَ، فقد كان ذا حسٍّ لغويٍّ مرهف، وفهم ثاقب، وتعبير يكسو كل معنى ما يلائمه من الألفاظ ويعبّر عنه من الكلمات. وهو الذي رأى أنّ اللغة العربية واسعة في اشتقاقاتها، كثيرة المرونة، غنية بألفاظها المتباينة والمترادفة، ومن هنا أُتي الكُتَّابُ، فكثيرًا ما يستعملون الألفاظ المترادفة والمتواطئة، بعضها في مواضع بعض، مع أن الواجب على الكاتب إذا وقع على ألفاظ مختلفة متقاربة المعاني، أن يبحث عن أسباب اختلافها، ثم يستعمل كلًّا في موضعه، ما دام من «حق علم المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وألا يكون له فاضلًا أو مفضولًا، ولا مُقصِّرًا ولا مشترِكًا ولا مضمِّنًا».

* * *